DE GAULLE (1890-1970)

الفصل التاسع

كتاب عن ديجول .. شاعر الفكر أو شاعرية القرن التاسع عشر

كتاب الأديب الفرنسي الراحل جان جولميه عن شارل ديجول كأديب تحول في نسخته العربية إلى كتاب بقسمين الأول عن الرئيس الفرنسي الراحل والثاني عن جولميه شخصيا.

في خلاصة ما توصل إليه جولميه أن أعمال ديجول التي تركزت على شؤون الجيوش جاءت «وليدة فكر وأسلوب متينين. أنها مليئة بشاعرية الفكر.. شاعرية القرن التاسع عشر.»

وردا على أي استغراب في هذا المجال أضاف متسائلا «لم يكون العقل - بشرط أن نحبه وندافع عنه بحماسة- غير قادر على إلهام عمل شعري. لو لم يجد ديجول في عشقه لفرنسا ولحرفة السلاح سر الارتقاء نحو الإنسان ولو لم يعرف كيف ينفث بالحياة أفكاره بقوة الأسلوب لبقي وهو تقني ماهر في الحرب شريكا محترما لدور نشر» متخصصة في الشؤون العسكرية.

وقال :«ففي كتابة ديجول المتكبرة البصيرة يبدو الرجل واثقا من نفسه كونه متيقنا من أن فكره مهما كانت العقبات التي سيواجهها متنوعة وخطيرة. سينتصر في النهاية إذ الفكر يلقى دعم تحالف الحقيقة الذي لا يقاوم»

اسم الكتاب جاء على الصورة التالية «شارل ديجول الأديب.. وتحية إلى جان جولميه». وقد ترجمه سهيل شباط إلى العربية وراجعه محمد صبح وأشرف على الترجمة ومراجعتها المركز الثقافي الفرنسي في دمشق وصدر عن دار قدمس في ٢٢٩ صفحة

متوسطة القطع بالعربية و١١٤ صفحة بالفرنسية. ونشر الكتاب بدعم من المركز الثقافي في دمشق ومساعدة وزارة الخارجية الفرنسية.

كتب السفير الفرنسي لدى سوريا جان ـ فرانسوا جيرو مقدمة صغيرة للكتاب متحدثا عن أول لقاء بين ديجول وجولميه فقال أن ذلك حدث في حلب في شهر أغسطس آب ١٩٤١ في أشد الساعات صعوبة من الحرب العالمية الثانية قبل أن يفرض ديجول نفسه «رئيسا دون منازع لفرنسا الحرة. جان جولميه إذ كان مديرا للتعليم في (حلب) كبرى المدن الشمالية في سوريا قدم إلى ديجول ولكنه لم يكن يجهله» إذ كان قد قرأ له كتبا هي «الشقاق لدى العدو» و«حد السيف» و«فرنسا وجيشها» فكان هذا اللقاء استهلالا لكتاب أصدره بعد خمس سنوات بعنوان «شارل ديجول كاتبا» ثم بعد عشر سنوات أصدر «مذكرات حرب» وفيه أدرك جولميه «بحاسة مدهشة بالاستباق أي قبل شهرة الجنرال الأدبية والسياسية قوة أعماله وحتمية مصيره.»

وتحدث المترجم شباط عن جولميه فقال انه لحبه للتوجه إلى سوريا التحق سنة ١٩٢٨ بفرقة من الرماة في بيروت وهناك تعلم لغة عربية مختلفة جدا عن العربية السيئة التي تعلمها في مدرسة اللغات الشرقية والسوربون. ثم عين في دمشق مستشارا للتعليم العام والتحق سنة ١٩٣٩ بفرقة سورية مختلطة في حلب وعلى ضوء قنديل بسبب غياب الكهرباء كتب كتابه الشهير «الأرض» وكتابا آخر هو «رقم القيد» وهما بداية كتبه فكان لهما أثر إيجابي في أدباء فرنسا. وغادر سوريا ولبنان إلى فرنسا عام ١٩٥١.

يتحدث جولميه في فصل بعنوان «ديجول والأسلوب الأدبي» عن أسلوب ديجول فيقول: أن «الموضوع لا يخلو من الأهمية فإنه بقوة العبارة تمكن من الارتقاء إلى مستوى أعمال فنية أدبية بكتابات هي من إلهام الأحوال.»

وفي حديث جولميه عن كتب الجنرال وبشكل خاص عن مجموعات خطبه بعد أن تطور أسلوبه يقول: «أن ديجول مهما كانت عمويته من حيث الشكل فإنه فنان حريص برهافته على إيلائها العناية التامة فقد كان دائبا على تصحيح نصه الذي لا يرضى عنه البتة. وفي غياب أي دليل آخر يكفينا الجهد الذي يتجشمه في سبيل خطبه لإقناعنا بالجهد الذي تطلبته كتبه.» وهو لا ينسى أن دور الخطيب هو الإرشاد «فيرتب البراهين

بسهولة كلية وهو بهذه البلاغة الصريحة والمباشرة المقتصرة على الوسائل الابتدائية يصل ليس فقط إلى أسماع ولكن أيضا إلى ثقة الشعب الفرنسي المعرم بالوضوح».

يضيف جولميه «لا بد للمرء من أن يفاجأ لدى قراءة صفحة من كتابات ديجول من كثرة توارد البنية الثلاثية فيها. لقد بيّنت. ولا أدعي أنني استنفدت العدد أكثر من ستمائة في «الجيش المهني» و«فرنسا وجيشها» وسأكتفي ببعض الأمثلة..».

ويعرض نماذج عن ذلك التقطيع الذي يخلق إيقاعا موسيقيا معينا ويبدو في الوقت نفسه محشوا بالمعاني أو مضغوطا بشكل مدروس والذي يسميه الكاتب «المقاطع المؤلفة من ثلاث جمل متساوية» ومن ذلك قول ديجول «من هنا.. شبكة من المواثيق والاتفاقيات والمراسيم العامة. أن يكون ثمة متسع من الوقت. الوقت ضروري فعلا للتنظيم.. للتسليح. لتدريب الدفعات الجديدة.»

يضيف جولميه «وفيما يلي تراكيب ثلاثية لجمل مستقلة أو جمل تابعة أو جمل صلة الموصول.. في كل مكان تتصلب الأنانية في الدول. كل ينكفىء على ذاته العالم يضج بالهتافات.. الأذى الذي ألحقوه بي.. الظلم الذي مارسوه علي. المكانة التي تعود إلي» وينتقل إلى مثل آخر: «هؤلاء الفرنسيون الذين اندفعوا حتى فالماي. الذين حطموا تماما العدو. هؤلاء من بين الألمان الذين في ٢٣ (فبراير) شباط ١٩١٨ الذين عبر عشرة أسابيع، تخيلوا أن ساعة الحسم قد أزفت حيث التقدم متسارع. حيث كل جرأة من الجرات مسموح بها، حيث العدو يستسلم للقدر».

ويقول الكاتب: «وتتكرر ثلاثية المفردات أكثر من الجمل ولأكثر من مرة في الصفحة الواحدة ثلاثيات أسماء.. مشاريع مجهضة. أمال خائبة. إخفاقات في مساعينا... اضطراب. انقسامات. قرف. مذابح. نهب. حرائق. مدافع خفيفة. مدافع قديمة.. بنادق قديمة.. مدافع ثقيلة. هجينة. حنشية كبيرة.» وننتقل معه إلى «ثلاثيات نعوت» فنقرأ «فريسة قريبة في الغابة. جميلة في الغابة.. وسهلة في الغابة. هذا الشعب المتحرك المتردد المتناقض.» ومن هنا إلى ثلاثيات من أسماء العلم «دوق بريتاني. دوق دانجو. دوق ده بورجوني.. أنجو الأنسون. نافار.. إلكسندر. هانيبال. نابوليون.. فونتينوا، قسنطينة، سياستوبول».

وهناك ثلاثيات من المصادر أو ما يسميه المؤلف أفعالا مصدرية ومنها «يطلب إلى

غرفة التمريض التقويم..إعادتها.. تقويمها.. للإعلام.. للمرافقة.. للضبط.. للهجوم.. للرمي.. للتحطيم..» ومن هنا ننتقل إلى «ثلاثيات أفعال في صيغة اسم الفاعل» وهي كما تبدو لنا بالعربية أقرب إلى «الحال» في غالبها ومنها مثلا «مطبقا .. مطورا.. مسرعا.. مستمعا.. رائيا..مفكرا».

يقول المؤلف: إن هذه المفردات لا تأتي مرتبة عن طريق الصدفة «إنما نظامها يشير كثيرا إلى تطور متزايد» ويقدم مثلا على هذا الأمر «هذه الأخطاء.. هذه الأوهام.. هذا الاضطراب من ثم يتقون الهزات.. الانقطاعات.. التقلبات. جنود ساهرون.. واعون أصلاب.. حاذقون.. أمينون.. يا لبؤس هؤلاء الجنود».

وينتقل نص ديجول أحيانا من الواقعي إلى الخرافي. من الحقيقي إلى الأسطوري «وديان ضيقة. سفوح وعرة. أحراش عميقة. جنيات. ضبابات. عفاريت وأرواح شريرة».

يقول جولميه «إلا أنه وإن تنوع استعمال هذه البنى فإن أسلوب ديجول معرض للرتابة والصرامة غير المحتملين لو لم يحي هذه الآلية الثقيلة بعض الشيء بكل وسائل الحركة.» وزاد على ذلك قوله: «ليس اللون هو ما يجعل أسلوب ديجول يشد الانتباه فلغته أقرب إلى التجريد.. خالية من الصور. فلندرس الرسوم التي يزين بها إنشاءاته التاريخية إذ لا نعثر فيها على تفصيل حسي لهيئة الشخص وإنما فقط بعض الخطوط اختارها بمهارة تكفي لاستحضار روحه أو فكره».

وليس من النادر أن يأتي نثر ديجول على فقرات شعرية حقيقية حيث تستعمل إيقاعات مختلفة بما فيها الوسائل التعبيرية للشعر الحر» ومن ذلك مثلا قوله: «ولكن إن أراد السير إلى الشمال. كم من نهر قاطع الطريق. كم من بركة من مستنقع... مترامية إلى ما لا نهاية. تستهلك بحزن قوته وشجاعته».

في «تحية إلى جان جولميه» نصوص وشهادات عديدة منها للويس نوسيرا وإيريك دوشو وآلان ديجران وجابرييل دونور ورسائل إليه من ديجول ورسالتان من لوي أراجون وأخرى من أندريه بريتون.